مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ـ المجلد ١٣ (العدد ١) ١٤١١هـ ـ ١٩٩١ م

الصورة الالتفاتية بين ابن الأثير وحازم القرطاجني
" دراسة في المفهوم والوظيفة "

د. قاسم المومني
جامعة اليرموك
اربد ـ الأردن

عندما نتحدث عن ابن الأثير وحازم القرطاجني فاننا نتحدث عن ناقدين لهما في التراث النقدي والبلاغي عند العرب مكانة لافتة . أما الأول فانه فيما يقال عنه خاتمة النقاد والبلاغيين العرب الكبار(١) ، أما الثاني فانه فيما يقال عنه ـ أيضا ـ لم يتقدم النقد ـ عدا النقد في عصر النهضة ـ خطوة بعده .(٢) والناقدان يجمع بينهما ـ بعد ذلك ـ اطلاعهما على الانجازات النقدية قبلهما ، ورغبتهما في الانعتاق من دائرتها وتجاوزها ، ويجمع بينهما ـ في ذات الوقت ـ أن كليهما ناقد مبدع ، مما يعني أن تعاملهما مع الشعر ـ وكذا النثر ـ ظل يصدر عن خبرة به ووعي بخفاياه وغوامضه ، ومما يجمع بينهما اهتمام كل واحد منهما بالظاهرة الأدبية ومشكلاتها على صعيد التأصيل وعلى صعيد التطبيق على السواء .

ورغم وجوه الشبه بين الناقدين وهي وجوه قد تكثر وقد تقل ، فان ثمة مايختلف فيه الواحد منهما عن الآخر وهو اختلاف تفرضه طبيعة الفروق الفردية ويمليه اختلاف الظروف المعاشة لكل . هذا الاختلاف يتجلى ـ أساسا ـ في التشكيل الثقافي لكل منهما وفيما ينجم عنه من طرائق المعالجة بالطبع. أما ابن الأثير فانه عربي الذوق ، الأمر الذي يفسر بنحو خاص اعجابه اللافت بالآمدي في كتابه " الموازنة " وبابن سنان الخفاجي في كتابه " سر الفصاحة "(٣) ، ويفسر عدم تعاطفه مع النقاد الذين ظلوا ينهلون من النهاء الأرسطي كابن سينا وغيره ممن يلف لفه .(٤)

أما حازم القرطاجني فان ثقافته العربية لم تحل دون تواصله مع الثقافة الأجنبية مما يفسر اعجابه بقدامة

١ـ راجع عبد الكريم الأشتر : آخر النقاد العرب ضياء الدين بن الأثير، بحث منشور ضمن مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ،ج٣، مجلد٤٢ ،تموز١٩٦٧م ربيع الأول ١٣٨٧هـ : ٥٦٢ .

٢ـ راجع شكري عياد : كتاب أرسطوطاليس في الشعر ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م : ٢٤٢ .

٣ـ راجع ابن الأثير : المثل السائر تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة منشورات دار الرفاعي بالرياض، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ،١٩٨٣ م ،١: ٤٥-٤٦ .

٤ـ راجع المصدر نفسه : ٢ : ٩ ـ ١٠

ابن جعفر في كتابه " نقد الشعر" ويفسر نقوله عن أبي نصر الفارابي و ابن سينا (١).

ولست أعقد مقارنة بين الرجلين فأتتبع بالتفصيل مناحي التوافق أو التمايز بينهما ، فهذه المقارنة ، أومثلها تقتضي التأني عند الناقدين في مجموع نتاجهما وفي تفاصيله ، وذلك أمر لاتتطلبه الدراسة ، حسبي – والأمر على ما أقوله – أنني قد اجتزأت من المقارنة على جوامعها – وحسبي أن أقول – من ثم – اننا نتحدث عن الصورة الالتفاتية وهي مأم الدراسة ، فاننا نتحدث في أمر يتفق الناقدان في التأكيد على أهميته ، ونتحدث في أمر ربما لاتصادفه بنفس القدر من النضج و الاكتمال على النحو الذي نصادفه عند الناقدين أو عند أحدهما في الأقل(٢). والتوقف عند الناقدين في معالجتهما للصورة الالتفاتية مفهوما ووظيفة ، لايمنع من الانتهاء الى غيرهما ان دعت الى ذلك حاجة ، وهي واقعة دون شك .

ومع أن مصطلح " الصورة " قد صيغ تحت وطأة التأثر بمعطيات النقد الغربي وبمصطلحاته فان الاهتمام بالمشكلات التي يطرحها المصطلح وبمباحثه قديم في تاريخ النقد العربي (٣). المهم أن الالتفات مبحث من هاتيك المباحث ، و الأهم أن حازما القرطاجني يستخدم – ربما للمرة الأولى في التراث النقدي والبلاغي مصطلح " الصورة الالتفاتية " ليدل به على مايدل عليه مصطلح الصورة من ناحية وليدل على حقيقة الدور الذي يلعبه الالتفات باعتباره مبحثا من مباحثها من ناحية ثانية .

– ١ –

تروم الدراسة – اذا – التوقف عند الصورة الالتفاتية في تصور الناقدين ابن الأثير وحازم القرطاجني ، وتسعى – أساسا – الى الكشف عنها في مفهومها ووظيفتها فحسب . ويبدأ الناقدان بحد الالتفات وينتهيان الى وظيفتها ، وذلك أمر منطقي مادام حد الشيء هو الخطوة الأولى لتحديد مفهومه وما دام المفهوم يفرض الوظيفة ويتطلبها (٤). ان الحد قول دال على المفهوم ، وهو طريق من طرق التعريف يشتمل على مابه من جهة الاشتراك وعلى مابه من التمايز ، أي أنه ينطوي بالطبع على تحديد الخصائص النوعية التي تجعل الشيء المعرف يتشابه مع غيره أو يتمايز عنه (٥).

١– راجع هذا الاعجاب عند حازم القرطاجني منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ، تونس ١٩٦٦ : ٢٥

٢– يقول أحمد مطلوب عن ابن الأثير: ان كلامه على الالتفات مسهب ، ويقول : وليس في كتب البلاغة الأخرى أوسع مما ذكره ابن الأثير عن الالتفات . راجع معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٨٣ : ١ : ٢٩٨ ، ٣٠٢

٣– راجع جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٣ : ٥

٤– راجع جابر عصفور : مفهوم الشعر ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة : ١٩٧٨ .

٥– راجع جابر عصفور : مفهوم الشعر : ٢٣٧ وراجع مصادره ، وقارن بادريس الناقوري: المصطلح النقدي في " نقد الشعر " : دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، ١٩٨٢ : ١٠٨

ويصار الى الحد فيما يقال عبر طريقين[1]، طريق عام للمسار في الدائرة التي تنطوي على الشيء المحدد عما سواها ، وطريق خاص يتمايز فيه الشيء المعرف عن غيره من الأشياء المنطويه معه في دائرته ذاتها . وما يقال عن الحد – هنا – يمكن أن يقال عن حد الالتفات بالضبط . ان الالتفات يمتاز عن غيره من الأنواع التي تأتلف معه في دائرته وهي دائرة المجاز عند ابن الأثير ودائرة الأسلوب عند حازم القرطاجني في أن له طبيعته المتميزة التي تتجلى على مستوى التشكيل وعلى مستوى الفعل أو التأثير . وفي الدائرة التي يرجع اليها الالتفات تتعاضد كل الأنواع بعضها مع بعض لتسهم في احداث الأثر الذي تتوخاه أو لأقل بعبارة أخرى ، ان كل الأنواع – مهما تعددت – تلتقي عند مستوى التشكيل وعند مستوى التأثير ، ولكن يظل لكل نوع ما يميزه ويفرقه عن غيره ويظل له – من ثمة – دائرته النوعية على المستويين على السواء .

قد لاتكون هذه لغة الناقدين،ولكن هذا هو الذي يؤدي اليه تصورهما . قد يقول ابن الأثير عن الالتفات انه " خلاصة علم البيان التي حولها يدندن واليها تستند البلاغة ، وعنها يعنعن " [2]،وقد يقول ابن الأثير عن الالتفات ان " حقيقته مأخوذة من الالتفات الانسان عن يمينه وشماله ، فهو يقبل بوجهه تارة كذا ، وتارة كذا وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة لأنه ينتقل فيه من صيغة الى صيغة [3] . وقد يقول ابن الأثير عن الالتفات " ويسمى أيضا " شجاعة العربية" وانما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الاقدام ، وذلك أن الرجل الشجاع يركب مالا يستطيعه غيره ويتورد ما لا يتورده سواه وكذلك هذا الالتفات في الكلام ، فان اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات [4]فأفهم من أقاويله ، ولقد أخذت منهامتخيرها أن الالتفات تحول بالكلام من جهة لجهة لسبب اقتضاه ، وأفهم من أقاويله أن الالتفات خصيصة في الكلام لايقدرعليها ولا يدرك كنهها الا من كانت مهمته في الأدب على صعيد الابداع والتلقي قوية ، وأفهم من أقاويله أن الالتفات في الذي يرومه كغيره من المباحث التي تندرج معه في دائرته ، بيد أن هذا الاشتراك لايلغي – بداهة – تميزه عنها في حقيقته وفي جوهره .

وما يقوله ابن الأثير عن حقيقة الالتفات يتردد صداه ويتجاوب رجعه في كتابات معاصرة حازم القرطاجني صحيح أن حازما يختلف في تكوينه الثقافي عن ابن الأثير ، وصحيح أن اللافت في ثقافة الأول تعدد روافدها ، على الضد مما هي عليه ثقافة الثاني التي ظلت محصورة – على الأغلب – في العربية .لقد كان حازما فيما تخبر به كتب التراجم على معرفة بالفلسفة ومثلها بالمنطق وكان على وعي بعلوم اليونان الخاصة بالشعر[5]. وكل هذه الجوانب تخلو منها ثقافة ابن الأثير أو تكاد ، وصحيح

١– راجع مزيدا من التفصيل عن هذين الطريقين عند جابر عصفور : مفهوم الشعر : ٣٢٧ – ٣٣٩ .

٢– ابن الأثير: المثل السائر:٢: ١٨١

٣– المصدرنفسه :الجزءنفسه : الصفحة نفسها .

٤– = = = = = = =

٥– راجع محمد الحبيب ابن الخوجة في مقدمته لكتاب"المنهاج" :١١٨وراجع مصادره .

أن هذا الاختلاف في التشكيل الثقافي لكل منهما أمر يفضي فيما افترضه الى رحابة أفق حازم ، كل ذلك صحيح ، ولكن الصحيح أيضا أن ليس ثمة فرق بين مايقوله حازم في حقيقة الالتفات وبين مايقوله ابن الأثير ، وأن الفرق بينهما - ان وجد يكاد ينحصر في المسالك والمسارب ليس غير .

ان الانعطاف بالكلام من جهة الى أخرى أو غرض الى آخر لايخلو - فيمايقوله حازم - من أن " يكون مقصودا أولا ،فيذكر الغرض الأول لأن يستدرج منه الى الثاني وتجعل مآخذ الكلام في الغرض الأول صالحة مهيأة لأن يقع بعدها الغرض الثاني موقعا لطيفا ، وينقل من أحدهما الى الآخر انتقالا مستطرفا ، أو لايكون قصد أولا في غرض الكلام الأول أن يجعل ذكره سببا لذكر الغرض الثاني ولا توطئة للصيرورة اليه والاستدراج الى ذكره بل لاينوي الغرض الثاني في أول الكلام ، وانما يسنح للخاطر سنوحا بديهيا ويلاحظه الفكر المتصرف بالتفاتاته الى كل جهة ومنحى من أنحاء الكلام . فما كان من قبيل هذا القسم الثاني فانه الذي يعرف بالالتفات وأما القسم الأول فان منه مايكون بصورة الالتفات ومنه مالايكون بتلك الصورة " (١) ، والصورة الالتفاتية كما يحددها حازم " هي أن يجمع بين حاشيتي كلامين متباعدي المآخذ والآراء وأن ينعطف من احداهما الى الأخرى انعطافا لطيفا من غير واسطة ، تكون توطئة للصيرورة من أحدهما الى الآخر على جهة من التحول " (٢).

١- حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٤١٣ .

٤- المصدر نفسه : ٣١٥ .

لقد حرصت على أن أنقل كلام حازم - على طوله - لأبين مدى التوافق بين مفهومه للالتفات وبين مفهوم معاصره ابن الأثير ، ولأبين - بعد ذلك - أن مصطلح الصورة الالتفاتية يستوعب عنده ما يستوعبه مصطلح الالتفات عند ابن الأثير ، ويستوعب المصطلح في الوقت نفسه عند الأول مالا يستوعبه المصطلح عند الأخير . ان مصطلح الصورة الالتفاتية يعني عند حازم - كما أفهمه - مايعنيه الالتفات ، ويشتمل عنده على مايعبر عنه بالتخلص وبالاستطراد أو كما يقول " واذ قد تبين أن ماقصد به الاستدراج أولا أو سمح فيه الالتفات آخرا كلاهما منه مايترامى فيه من الغرض الأول الى الثاني من بعد على سبيل التدرج ، ومنه مايخلص فيه الى الشيء مما يليه من الكلام بغير تدرج ... وأهل البديع يسمون ماكان الخروج فيه يتدرج تخلصا ، وما لم يكن بتدرج ولا هجوم ولكن بانعطاف طارئ على جهة من الالتفات استطرادا وربما اجتمع التخلص والاستطراد ، كقول مسلم :

أجدك لاتدرين أن رب ليلة
كأن دجاها من قرونك تنشر
أرقت لها حتى تجلت بغرة
كغرة يحيى حين يذكر جعفر (١)

وسواء أكان الالتفات كما يحدده حازم ، وكذا ابن الأثير ، وسواء أكانت الصورة الالتفاتية كما يحددها حازم دون ابن الأثير ، فان الالتفات هنا أو هناك انعطاف بالكلام من صيغة لصيغة لغرض ما ، هذه الحقيقة التي يؤكدها الناقدان

١- حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٣١٦ - ٣١٧ .

لم تكن الا استمرارا لحقيقة الالتفات المتأصلة في كتابات النقاد العرب قبلهما المتجذرة في كتابات بلاغييهم (١) الأمر الذي يعني افادة الناقدين من الجهود المبذولة في الكشف عن حقيقة الالتفات ، بل ان كلا الناقدين يحيل صراحة الى مصادره في هذا الجانب (٢) ولكن علينا أن نلاحظ أن الناقدين عندما يؤكدان على ضرورة التلطف في الانتقال فانما يهدفان الى تهذيب الطباع على صعيد الابداع والتلقي في عصر، وهو عصر الناقدين ، اختلت فيه الطباع وتداخل فيه الفساد الأذواق بنحو طالما عبرعنه الناقدان . أما ابن الأثير فانه يعبر عنه في معرض حديثه عن الكتابة والكتاب في زمانه حيث يقول: " واذا نظر الى كتاب زماننا وجدوا كذلك ، فقاتل الله القلم الذي يمشي في أيدي الجهال الأغمار، ولا يعلم أنه كجواد يمشي تحت حمار ! ولو أنه لايتطاول اليه الا أهله لبان الفاضل من الناقص ، على أنه كالرمح الذي اذا اعتقله حامله بين الصفين بان به المقدم من الناقص ، وقد أصبح اليوم في يد قوم هم أحوج من صبيان المكاتب الى التعليم " (٣) ، وحيث يقول : " ومن أعجب الأشياء أني لا أرى الا طامعا في هذا الفن – فن الكتابة – مدعيا له ، على خلوه من تحصيل آلاته وأسبابه ، ولا أرى أحدا يطمع في فن من الفنون غيره ولا يدعيه هذا وهو بحر لا ساحل له ، يحتاج صاحبه الى تحصيل علوم كثيرة ، حتى ينتهي اليه ، ويحتوي عليه ، فسبحان الله ! هل يدعي بعض هؤلاء أنه فقيه ، أو طبيب أو حاسب ، أو غير ذلك من غير أن يحصل آلات ذلك ، ويتيقن معرفتها؟ فاذا كان العلم الواحد من هذه العلوم الذي يمكن تحصيله في سنة أو سنتين من الزمان ، لايدعيه أحد من هؤلاء ، فكيف يجيء الى فن الكتابة ، وهو مالاتحصل معرفته الا في سنين كثيرة ، فيدعيه وهو جاهل به ؟ (٤).

ولم تكن حال الشعر ولا حال نقدته أيام حازم وقبلها ببرهة – بأحسن من حال الكتابة والكتاب أيام ابن الأثير

١– راجع حقيقة الالتفات – مثلا– عند عبد الله بن المعتز: البديع ، تحقيق اغناطيوس كراتشقوفسكي ، مكتبة المثنى بغداد ، الطبعة الثانية ،١٣٩٩هـ/١٩٧٩م : ٥٨–٥٩ ، وقدامة بن جعفر، نقد الشعر تحقيق كمال مصطفى ،مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد ، ١٩٦٣– ١٦٧، والباقلاني : اعجاز القرآن تحقيق السيد أحمد صقر ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة د.ت : ٩٩ ، وابن رشيق : العمدة تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد المكتبة التجارية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣م : ٢: ٤٥، وأسامة بن منقذ : البديع في نقد الشعر ، تحقيق عبد آ . علي مهنا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ،١٤٠٧هـ/١٩٨٧م : ٢٨٧، وراجع اختلاف التسمية لمصطلح الالتفات من ناقد لآخر أو من بلاغي لآخر عند جليل راشد فالح : فن الالتفات في مباحث البلاغيين : بحث منشور في مجلة آداب المستنصرية ،العدد التاسع ١٤٠٤هـ/٩٨٤م : ٧٠

٢– راجع هذه الاحالات عند ابن الأثير ،المثل السائر: ٢: ١٨٢ ،وعند حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٣١٥.

٣– ابن الأثير : المثل السائر : ٢: ٦٦

٤– المصدر نفسه : الجزء نفسه : ٦٧

لقد ران الخمول والكسل " على قلوب شعراء المشرق المتأخرين وأعمى بصائرهم عن حقيقة الشعر منذ مئتي سنة . فلم يوجد فيهم على طول هذه المدة من نحا نحو الفحول ولا من ذهب مذاهبهم في تأصيل مبادىء الكلام وأحكام وضعه وانتقاء مواده التي يجب نحته منها . فخرجوا بذلك عن مهيع الشعر ودخلوا في محض التكلم " (١). وتداخل الطباع - زمان حازم - من الاختلال والفساد أضعاف ما تداخل الألسنة من اللحن ، فهي تستجيد الغث وتستغث الجيد من الكلام .. ولا شك أن الطباع أحوج الى التقويم في تصحيح المعاني والعبارات عنها من الألسنة الى ذلك في تصحيح مجاري أواخر الكلمة ، اذ لم تكن العرب تستغني لصحة طباعها وجودة أفكارها عن تسديد طباعها وتقويمها باعتبار معاني الكلام بالقوانين المصححة لها " (٢) وعلى الجملة فكيف يظن ظان أن صناعة البلاغة يتأتى تحصيلها في الزمن القريب " وهي البحر الذي لم يصل أحد الى نهايته مع استنفاد الأعمار فيها ! وانما يبلغ الانسان منها ما في قوته أن يبلغه . ألا ترى أن كثيرا من العلوم قد نفذ فيها قوم في أزمنة لاتستغرق الا جزءا يسيرا من العمر؟ وهذا أبو الطيب المتنبي ، وهو امام في الشعر لم يستقم شعره الا من مزاولة الصناعة عشرين سنة ، ثم زاولها بعد ذلك زمنا طويلا ، وتوفي وهو يصيب فيها ويخطيء . وهذا ليس مختصا به وحده ، بل كل امام ناظم أو ناثر هذه غايته ، اذ كانت هذه الصناعة تتشعب وجوه النظر

١- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ١٠

٢- المصدر نفسه : ٢٦

فيها الى مالايحصى كثرة . فقلما يتأتى تحصيلها بأسرها والعلم بجميع قوانينها [illegible] وسائرها من العلوم ممكن أن يتحصل كله أو جله "(٣). باختصار ،لقد هان الشعر على الناس هذا الهون" لعجمة ألسنتهم واختلال طباعهم . فغابت عنهم أسرار الكلام وبدائعه المحركة جملة فصرفوا النقص الى الصنعة ، والنقص بالحقيقة راجع اليهم وموجود فيهم "(٤). وباختصار أشد فان لكثرة القائلين المغالطين في دعوى النظم وقلة العارفين بصحة دعواهم من بطلانها " صارت نفوس العارفين بهذه الصنعة بعض المعرفة تستقذر التحلي بهذه الصناعة ، اذ بخسها أولئك الأخساء واشتبه على الناس أمرهم وأمر أضدادهم فأجروهم مجرى واحدا من الاستهانة بهم فالمعرفة لاشك منسحبة على الرفيع في هذه الصنعة بسبب الوضيع . فلذلك هجرها الناس وحقها أن تهجر "(٥).

قد يبدو ما أقوله عن أمر الشعر أو النثر وعن أمر العلم بهما - عصر الناقدين - ضربا من الاستطراد ، بيد أنه استطراد لابد منه ، ويبرره - عندي - أن الالتفات خصيصة خفية في الكلام شعرا كان أو نثرا ، مما يعني أن مايقال عن الكلام يمكن أن ينطبق - بداهة - على الالتفات على اعتبار أنه منحى فيه ، هذه ناحية ، وناحية أخرى فان التأكيد على التلطف في الالتفات بصورة المتعددة يعني - كما أخاله - جزءا من تأكيد أعم وأشمل على التلطف في سائر الكلام ، شعره ونثره أما الثالثة فان تأصيل القواعد الخاصة

٣- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ١٢٤

٤- المصدر نفسه : ١٢٥

٥- المصدر نفسه : ٨٨

بالالتفات ، والتلطف قوامها ، يسهم بتعاضده مع غيره من القواعد في الانتهاء الى معرفة القواعد الخاصة بالكلام على الجملة ، وبهذه المعرفة يتم تسديد الطباع على مستوى الابداع وعلى مستوى التذوق ، وبغير هذه المعرفة تظل تستغث الجيد وتستجيد الغث ، ويظل الكلام البليغ مرقاة لاتعجز أحدا .

واذا كان الالتفات انتقالا بالكلام من صيغة الى أخرى أو من جهة الى جهة واذا كانت الصورة الالتفاتية انصرافا من حاشية لأخرى في حاشيتي كلامين متباعدي الأغراض متباييني المآخذ ، وتوصلا الى الواحدة منهما بالأخرى - فان لهذا الانتقال والانصراف طرائقه ، قد تتعدد هذه الطرائق وتتنوع ، المهم أن الالتفات بكل طرائقه مسلك خفي في الكلام لايتوخاه الا الفطن بأسرار الكلام وصناعته أو " العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطلع على أسرارها ، وفتش عن دقائقها ... ولا تجد ذلك في كل كلام ، فانه من أشكل ضروب علم البيان ، وأدقها فهما وأغمضها طريقا "(١) . ومثل هذا هو الذي يقال عنه انه بعيد المرامي" وهذا انما يتفق بقوة العارضة ومعاناة الطبع وكمال تصرف الفكر" (٢) . والأهم أن الالتفات بكل طرائقه يسهم بنحو أزيد في ايقاع الغرض الذي يرومه الكلام .

ودون أن أتحدث - الآن - في غرض الالتفات أو في وظيفته ، لأن ذلك ما ستتحدث عنه الدراسة في قسمها الثاني ولا أريد أن أذكر هنا ما سأبينه هناك فان الذي يعنيني أن أقوله ان الحديث في طرائق الالتفات أو أقسامه يعني الحديث بنحو أبعد في الدلالة على طبيعة الالتفات ، وأن هذه الطرائق تنحصر عند ابن الأثير في ثلاث : الأولى ، الرجوع من الغيبة الى الخطاب ومن الخطاب الى الغيبة ، والثانية : الرجوع عن الفعل المستقبل الى فعل الأمر ، وعن الفعل الماضي الى فعل الأمر ، والثالثة : الاخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل ، وعن المستقبل بالماضي .

أما الرجوع من الغيبة الى الخطاب فكقوله تعالى : " وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا ادّا" . وجلي أن الالتفات في قوله تعالى " لقدجئتم" وهو " خطاب للحاضر بعد قوله " وقالوا" وهو خطاب للغائب "(٣) .

ومما ينخرط في هذا السلك - والقول لابن الأثير - الرجوع من خطاب الغيبة الى خطاب النفس كقوله تعالى" ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم " وواضح أن الالتفات يتجلى في قوله تعالى :" وزينا" بعد قوله " ثم استوى " وقوله : " فقضاهن " و" أوحى " (٤) .

وينخرط في هذا السلك - أيضا - الرجوع من خطاب النفس الى خطاب الجماعة كقوله تعالى " ومالي لا أعبد الذي فطرني واليه ترجعون " . فقد وضع قوله

١- ابن الأثير : المثل السائر : ٢ : ١٩٤

٢- حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٣٢٤

٣- ابن الأثير : المثل السائر : ٢ : ١٨٥ وراجع مزيدا من الأمثلة في المصدر نفسه الجزء نفسه ، ١٨٥-١٨٦ .

٤- المصدر نفسه : الجزء نفسه : ١٨٦

" ومالي لا أعبد الذي فطرني" مكان قوله ومالكم لاتعبدون الذي فطركم؟ ألا ترى الى قوله " واليه ترجعون " ولولا أنه قصد ذلك لقال : الذي فطرني واليه ارجع وقد ساقه ذلك المساق الى أن قال: " اني آمنت بربكم فاسمعون "(١).

ان أمثلة هذا الضرب من الالتفات – الرجوع من الغيبة الى الخطاب – كثيرة في القرآن الكريم ،وما يورده ابن الأثير منها ، يورده على سبيل القياس فاستحضار قليلها يغني في الدلالة عن كثيرها أو كما يقول : " اذا تأملت مطاوي القرآن الكريم وجدت فيه من هذا وأمثاله أشياء كثيرة ، وانما اقتصرنا على هذه الأمثلة المختصرة ليقاس عليها مايجري على اسلوبها "(٢).

وكذا فان لهذا النمط من الالتفات أمثلة في فصيح الشعر ، ذلك مايقوله ابن الأثير ، لقد توقف الرجل – مثلا– عند أبي تمام في قوله :

وركب يساقون الركاب زجاجة
من السير لم تقصد لها كف قاطب
فقد أكلوا منها الغوارب بالسرى
وصارت لهم أشباحهم كالغوارب
يصرف مسراها جذيل مشارق
اذا آبه هم غذيق مغارب
يرى بالكعاب الرود طلعة شائر
وبالعرمس الوجناء غرة آئب
كأن بها ضغنا على كل جانب
من الأرض أو شوقا الى كل جانب
اذا العيس لاقت بي أبادلف فقد
تقطع مابيني وبين النوائب
هنالك تلقى الجود من حيث قطعت
تمائمه والمجد مرخى الذوائب

١– ابن الأثير: المثل السائر:٢: ١٨٧
٢– المصدر نفسه : الجزء نفسه : ١٨٨

وغير خاف أن الالتفات يمثله قول أبي تمام " يصرف مسراها " مخاطبته ، ثم قوله بعد ذلك " اذا العيس لاقت بي " مخاطبا نفسه ، فقوله " هنالك تلقى الجود " مخاطبا غيره " وفي هذا من الفائدة أنه لما صار الى مشافهة الممدوح والتصريح باسمه خاطب عند ذلك نفسه مبشرا بالبعد عن المكروه ، والقرب من المحبوب ، ثم جاء بالبيت الذي يليه معدولا به عن خطاب نفسه الى خطاب غيره وهو أيضا خطاب لحاضر فقال : " هنالك تلقى الجود" والفائدة بذلك أنه يخبر غيره بما شاهده ، كأنه يصف له جود الممدوح ، وما لاقاه منه ، اشادة بذكره وتنويها باسمه ، وحملا لغيره على قصده ، وفي صفته جود الممدوح بتلك الصفة الغريبة البليغة ، وهي قوله " حيث قطعت تمائمه " وما يقتضي له الرجوع الى خطاب الحاضر ، والمراد بذلك أن محل الممدوح هو مألف الجود ومنشؤه ووطنه "(١).

ومثل هذه الالتفاتات الجياد الالتفات المتمثل في الرجوع عن خطاب الغائب الى الحاضر في قول أبي الطيب المتنبي :

كثر الفكر كيف تهدي كما
أهدت الى ربها الملك عباده
والذي عندنا من المال والخيـ
ـل فمنه هباته وقياده
فبعثنا بأربعين مهارا كـ
ـل مهر ميدانه انشاده
عدد عشته يرى الجسم فيه
أربا لايراه فيما يزاده

١– ابن الأثير : المثل السائر: ٢ : ١٨٩ .

فارتبطها فان قلبا نماها
مربط تسبق الجياد جياده (١)

وأما الرجوع من الخطاب الى الغيبة، فان من أمثلته التي يوردها ابن الأثير وكلها مستقى من القرآن الكريم، قوله تعالى:" يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا، الذي له ملك السموات والأرض لا اله الا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون" وواضح أن الالتفات واقع في قوله تعالى " فآمنوا بالله ورسوله" ولم يقل : فآمنوا بالله وبي عطفا على قوله : " اني رسول الله اليكم" وذلك" لكي تجري عليه الصفات التي أجريت عليه وليعلم أن الذي وجب به والاتباع له هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبي الذي يؤمن بالله وكلماته كائنا من كان، أنا أو غيري، اظهارا للنصفة وبعدا من التعصب لنفسه، فقرر أولا في صدر الآية أنه رسول الله الى الناس، ثم أخرج كلامه من الخطاب الى معرض الغيبة لغرضين: الأول منهما، اجراء تلك الصفات عليه والثاني، الخروج من تهمة التعصب لنفسه "(٢).

ويتحول ابن الأثير من طريقة الالتفات الأولى وهي الطريقة - أو القسم - التي قدمت، الى الثانية فيصنع فيها صنيعه في السابقة، يتلمس لها الشاهد والمثل، ويتخير أمثلته وشواهده من القرآن الكريم حسب، المهم أن الأمثلة التي يسوقها تتشافع - عنده - في تعزيز هذا النمط من الالتفات، والأهم أن الغاية من ايراد هذه الأمثلة تعليمية يعبر عنها الرجل بقوله " فينبغي أن يكون صاحب هذا الفن من الفصاحة والبلاغة عالما بوضع أنواعه في مواضعها على اشتباهها (٣).

ان طريقة الالتفات الثانية تتوزع في قسمين، تماما كما هي الأولى، وهما الرجوع عن الفعل المستقبل الى فعل الأمر ثم الرجوع عن الفعل الماضي الى فعل الأمر. أما القسم الأول، فان مما جاء منه قوله تعالى " ياهو ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين. ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال اني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون " وظاهر أن الالتفات في قوله عز وجل :" أشهد الله واشهدوا " ولم يقل وأشهدكم ليكون موازنا له وليكون بمعناه " لأن اشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت وأما اشهادهم فما هو الا تهاون بهم ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم، ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف مابينهما وجيء به على لفظ الأمر، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه :" أشهد علي أني أحبك " تهكما به، واستهانة بحاله "(٤).

أما القسم الثاني، فكقوله تعالى " قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين" وكان تقدير الكلام - فيما يقوله ابن الأثير - " أمر ربي بالقسط وباقامة وجوهكم عند كل مسجد، فعدل عن ذلك الى فعل الأمر، للعناية بتوكيده في نفوسهم، فان الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده، ثم اتبعها بالاخلاص الذي

١- ابن الأثير: المثل السائر: ١٩٠
٢- المصدر نفسه الجزء نفسه : ١٩٢
٣- ابن الأثير : المثل السائر :٢:١٨٤
٤- المصدر نفسه : الجزء نفسه :١٩٣

هو عمل القلب ، اذ عمل الجوارح لايصح الا باخلاص النية ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : " الأعمال بالنيات"(١).

وينتهي ابن الأثير الى طريقة الالتفات الثالثة ، فتتفرع هي الأخرى - عنده - في ضربين : الاخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل ، ثم الاخبار عن الفعل المستقبل بالفعل الماضي . أما الأول فان الأساس فيه أن الفعل المستقبل اذا أتي به في حالة الاخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الاخبار بالفعل الماضي وذلك " لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها ، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها وليس كذلك الفعل الماضي " (٢).

ويستدل ابن الأثير على مايزعمه بقوله تعالى : " والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور فقوله " فتثير " معدول به عن لفظ الماضي الى المستقبل ، وما قبله وما بعده ماض ، وذلك ليمثل للسامع حكاية الحال التي يقع فيها اثارة الريح السحاب واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة " وهكذا يفعل بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية كحال تستغرب أو تهم المخاطب ، أو غير ذلك "(٣).

وعلى هذا ورد قوله تأبط شرا :

بأني قد لقيت الغول تهوي
بسهب كالصحيفة صحصحان
فأضربها بلا دهش فخرت
صريعا لليدين وللجران

فقوله " فأضربها " يخيل للسامع انه مباشر للفعل ، وأنه قائم بازاء الغول ، وقد رفع سيفه ليضربها ، وهذا " لايوجد في الفعل الماضي ، لأنه لايتخيل السامع منه الا فعلا قد مضى من غير احضار للصورة في حالة سماع الكلام الدال عليه "(٤).

وأما الاخبار بالفعل الماضي عن المستقبل - وهذا هو الضرب الثاني - فان الفرق بينه وبين الاخبار بالفعل المستقبل عن الماضي " أن الغرض بذاك تبيين هيئة الفعل ، واستحضار صورته ، ليكون للسامع كأنه يشاهدها والغرض بهذا هو الدلالة على ايجاد الفعل الذي لم يوجد بعد"(٥).

ويتبدى مايقوله ابن الأثير عن هذا الضرب في الذي يورده من الأمثلة عليه ، فمن أمثلة الاخبار بالفعل الماضي عن المستقبل قوله تعالى :" ويوم ينفخ في الصور ، ففزع من في السموات ومن في الأرض ". فانه انما قال " ففزع" بلفظ الماضي بعد قوله " ينفخ" وهو مستند للاشعار بتحقيق الفزع وأنه واقع لا محالة ، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل ، وكونه مقطوعا به "(٦).

ومما يجري هذا المجرى - فيما يورده ابن الأثير - الاخبار باسم المفعول عن الفعل المستقبل ، وانما يفعل ذلك لتضمنه معنى الفعل الماضي ، وذلك كقوله تعالى " ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود فانه انما آثر اسم المفعول " مجموع"

١- المصدر نفسه : الصفحة نفسها .
٢- ابن الأثير : المثل السائر:٢:١٩٤
٣- المصدر نفسه : الجزء نفسه :١٩٥
٤- المصدر نفسه :الجزء نفسه :١٩٦ وراجع مزيدا من الأمثلة في الصفحات: ١٩٥ ، ١٩٦
٥- المصدر نفسه : الجزء نفسه : ١٩٨
٦- ابن الأثير: المثل السائر:٢:١٩٩ وراجع أمثلة أخرى في الصفحة نفسها .

على الفعل المستقبل " يجمع "، وذلك لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنه الموصوف بهذه الصفة "(١).

كل هذه الطرق ، وما يتفرع عنها مما ذكرته ومما لم أذكره ، هي التي يتشكل بها الالتفات عند ابن الأثير وكل هذه الطرق يسوقها الرجل باعتبارها ضربا من ضروب الفصاحة والبلاغة ، ولأجل التفصيل في هذه الضروب وضع كتابه فيما يقوله (٢). وكل هذه الطرق تظل قابلة للتعلم ، يتفاوت في استخدامها المبدعون فثمة من يحسن فيها وثمة من يقصر، وكل هذه الطرق لاتتوقف عند حدود الانتقال من اسلوب بل تتخطاه لفائدة وراءه ،غير أنها لاتحد بحد ، ولا تضبط بضابط، لكن يشار الى مواضع منها ، ليقاس على غيرها "(٣). وكل هذه الطرق تتردد – من ثم عند حازم القرطاجني ، فيستوعبها قوله في معرض حديثه عن الحيل التي هي عمدة في استفزاز النفوس لطلب شيء أو تركه " فأما المأخذ الذي من جهة الحيلة الراجعة الى القائل فمن شأنه أن تقع معه الكلم المستندة الى ضميري المتكلم كثيرا . فأما مايرجع الى السامع من ذلك فكثيرا ما تقع فيها الصيغ الأمرية وما بازائها. وبالجملة تكثر فيها المسموعات التي هي أعلام على المخاطبة فأما مايرجع الى المقول به فكثيرا ماتقع فيها الأوصاف والتشبيهات وأكثر ملا يستعمل ذلك مع ضمائر الغيبة . وهم يسأمون الاستمرار على ضمير المتكلم أو ضمير المخاطب فينتقلون من الخطاب الى الغيبة ، وكذلك أيضا يتلاعب المتكلم بضميره فتارة يجعله ياء على جهة الاخبار عن نفسه وتارة يجعله كافا أو تاء فيجعل نفسه مخاطبا وتارة يجعله هاء فيقيم نفسه مقام الغائب ، فلذلك كان الكلام المتوالي فيه ضمير متكلم أو مخاطب لايستطاب . وانما يحسن الانتقال من بعضها الى بعض "(٤).

ومن الملاحظ أن حازما يتوقف عند حدود النص على هذه الطرق دون أن يتجاوزها لينهج نهج ابن الأثير– أو نهج غيره ممن هو متقدم عليه – في استحضار الشاهد والمثل ، فهل يرجع ذلك الى استغناء حازم – على هذا المستوى – بالذي قبله وأن ما انتهى اليه سلفه على المستوى نفسه ينطوي تحت الحديث في ظواهر الأشياء ذلك أمر ممكن ، وذلك أمر يلمع اليه قول حازم في معرض حديثه عن الصناعة الشعرية : " فاني رأيت الناس لم يتكلموا الا في بعض ظواهر ما اشتملت عليه تلك الصناعة ، فتجاوزت أنا تلك الظواهر بعد التكلم في جمل مقنعة مما تعلق بها الى التكلم في كثير من خفايا هذه الصنعة ودقائقها "(٥). هل يرجع ذلك الى قناعة حازم بأن الحديث في هذه الطرق ، ومن ثمة – التمثيل عليها يندرج تحت بابة الدعامات والأعوان لا العمد والأصول ، وأن محل عناية الرجل الأخيرة لا الأولى؟ ذلك أمر محتمل ، وذلك أمر يشير اليه قول حازم عند حديثه عن الأقاويل الشعرية " والأقاويل الشعرية أيضا تختلف مذاهبها وأنحاء الاعتماد فيها بحسب الجهة أو الجهات التي يعتني الشاعر فيها بايقاع الحيل التي هي عمدة في انهاض النفوس

١– المصدر نفسه :الجزء نفسه :الصفحة نفسها

٢– المصدر نفسه : الجزء نفسه : ١٩٤

٣– المصدر نفسه : الجزء نفسه : ١٨٣

٤– حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٣٤٧ – ٣٤٨

٥– المصدر نفسه : ١٨

لفعل شيء أو تركه أو التي هي أعوان للعمدة . وتلك الجهات هي مايرجع الى القول نفسه ، أو مايرجع الى القائل، أو مايرجع الى المقول فيه ، أو مايرجع الى المقول له . والحيلة فيما يرجع الى القول والى المقول فيه وهي محاكاته وتخييله بما يرجع اليه أو بما هو مثال لما يرجع اليه هما عمودا هذه الصناعة وما يرجع الى القائل والمقول له كالأعوان والدعامات لها "(١). وذلك أمر يشي به قول حازم في حديثه عن المعاني " وانما يعرف صحتها من خللها أو حسنها من قبحها بالقوانين الكلية التي تنسحب أحكامها على صنف منها ومن ضروب بيانها ... ولا بد مع ذلك من الذوق الصحيح والفكر المائز بين ما يناسب وما لا يناسب وما يصح بالاستناد الى تلك القوانين على كل جهة من جهات الاعتبار في ضروب التناسب وغير ذلك مما يقصد تحسين الكلام به "(٢).

ولست أدفع بما أقوله عن حازم اهتمامه بالنظرية دون التطبيق ، فهما في حدود ما يقدمه " المنهاج" تتواخيان وتتعاضدان بنحو يعز أن نجد له نظيرا - بنفس القدر من النضج والاكتمال - قبله ولست أدفع بما أقوله عن حازم قلة اكتراثه بالمثل أو الشاهد، فان حضوره في حدود ما يقدمه " المنهاج " أيضا تغني عن الانشغال ببيانه أو الاحالة اليه ، المهم أن طرق الالتفات التي يقدمها ابن الأثير ، وكذا سلفه ، تتردد في كتابات حازم ، والأهم أن طرق الالتفات عديدة أو كما يقول حازم " وأصناف الالتفاتات كثيرة "(٣). ولكن أكثرما يهتم به أهل البديع من هذه الأصناف - والقول لحازم - ثلاثة : الأول ، ما أوهم ظاهره أنه كريه وهو مستحب في الحقيقة فيلتفت الشاعر الى ذكر مايزيل ذلك ، نحو قول الشاعر :

ان الثمانين وبلغتها
قد أحوجت سمعي الى ترجمان

أما الثاني ، فان يلتفت الشاعر عند ذكر شيء الى ماله في نفسه من غرض جميل أو غير ذلك ، فيصرف الكلام الى جهة ذلك الغرض ، كقول جرير :

طرب الحمام بذي الأراك فهاجني
لازلت في غلل وأيك ناضر

أما الثالث ، فان يلتفت الى نقض خفي داخل عليه في مقصد كلامه أو يخشى تطرق النقض اليه ، فيحتال في مايرفع النقض ويزيل التطرق ، ويشير الى ذلك ملتفتا كقول طرفة :

فسقى ديارك غير مفسدها
صوب الربيع وديمة تهمي

ونحو قول ابن المعتز :

صببنا عليها ، ظالمين ،سياطنا
فطارت بها أيد سراع وأرجل(٤)

لقد قلت ان الصورة الالتفاتية تشتمل - عند حازم- ما يشتمل عليه الالتفات عند معاصره ابن الأثير وعند سلفه وأسلفت أن الصورة الالتفاتية تتجاوز عند حازم - في الذي تستوعبه الالتفات لتستوعب من المباحث ماهو في صورته كالتخلص والاستطراد وغيرهما .

قد يحدد حازم التخلص (٥)وقد يحدد

١- المصدر نفسه : ٣٤٦
٢- المصدر نفسه : ٣٥
٣- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٣١٥ .
٤- المصدر نفسه : ٣١٥ - ٣١٦
٥- راجع المصدر نفسه : ٣١٦ ، ٣٢٢

حازم الاستطراد (١)، وقد يفيد حازم في تحديداته لهما من أهل البديع قبله (٢)، وقد يعقد حازم مقارنة بين الشعراء المتحدثين والقدماء فيبين سبق الأولين الآخرين في حسن التخلص و الاستطراد (٣)، وقد يشير حازم الى أمثلة مما يستحسن في التخلص و الاستطراد (٤)، وقد يؤكد حازم على ما يتطلبه في التخلص(٥)، وقد يبين حازم ما يكون فيه التخلص (٦)،وقد تنحصر طرق التخلص – عند حازم – في نحوين :" نحو يتدرج فيه الى مايراد التخلص اليه وينتقل بتلطف اليه مما يناسبه ويكون منه بسبب ، ونحو لايكون التخلص فيه بتدرج و انتقال من الشيء الى ما يناسبه ويشبهه ولكن بالتفات الخاطر حيزا من حيز وملاحظته طرفا من طرف ، فينعطف الى مايريد التخلص اليه بما يكون مناقضا له أو مخالفا أو شك انعطاف من غير مقدمة تشعر بذلك أو واسطة تنظم بين الطرفين ولكن بالخروج من أحدهما والتخلي عنه دفعة الى الآخر على جهات من المآخذ . وذلك بأن يلاحظ في المتخالفين صفة يجتمعان فيها من حيث لايشعر فيكون ذلك طريق النقلة من أحدهما الى الآخر على سبيل تشبيه أو محاكاة أو بأن يضرب عن أحدهما في مقصد ويعتد بالآخر فيه ، أو بأن يسلب عن أحدهما ما أوجب للآخر . وقد يكون المأخذ في ذلك على غير هذه الأنحاء (٧).

١– راجع المصدر نفسه : الصفحات نفسها

٢– راجع حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٣١٦

٣– راجع المصدر نفسه : ٣١٧،

٤– راجع المصدر نفسه : ٣٢٢

٥– راجع المصدر نفسه : ٣١٨– ٣٢١

٦– راجع المصدر نفسه : ٣٢٢ – ٣٢٣

٧– المصدر نفسه : ٣١٩–٣٢٠

المتأكد فالمتأكد في كل مايقوله حازم أن الانتقال من غرض لغرض سواء أكان هذا في صورة التخلص أم في صورة الاستطراد ، وكلتا الصورتين تجمعهما الصورة الالتفاتية ، لايحسن الا اذا كان الكلام متصلا بعضه ببعض اتصالا محكما فلا يختل نسقه ولا يظهر التمايز في أطرافه وذلك لأن النفوس والمسامع " اذا كانت متدرجة من فن من الكلام الى فن مشابه له ، ومنتقلة من معنى الى معنى مناسب له ، ثم انتقل بها من فن مباين له من غير جامع بينهما وملائم بين طرفيهما وجدت الأنفس في طباعها نفورا من ذلك ونبت عنه ، وكانت بمنزلة المستمر على طريق سهل ، بينما هو يسير فيه عفوا اذ تعرض له في طريقه ما ينقله من سهولة المسلك الى حزونته ومن لينه الى خشونته ، وكذلك النفوس و الأسماع اذا قرعها المديح بعد النسيب دفعة من غير توطئة لذلك ، فانها تستصعبه ولا تستسهله ، وتجد نبوة ما في انتقالها اليه من غير احتيال وتلطف في ما يجمع بين حا شيتي الكلام ويصل بين طرفيه الوصل الذي يوجد للكلام به استواء والتئام "(٨).

وفي ضوء مايقوله حازم – هنا– نفهم تأكيده المتواصل على ضرورة التلطف في الانتقال ، وكذا على ضرورة تخلصه من كل ما يشينه كالتضمين والحشو و الاخلال و اضطراب الكلام أو كما يقول حازم " و الأمور التي يجب اعتمادها في التخلص هي التحرز من انقطاع الكلام ومن التضمين والحشو و الاخلال و اضطراب الكلام وقلة تمكن القافية والنقلة بغير تلطف و الاضطرار في ذلك الى الكناية عما يجب التصريح به و الابانة عنه ، والتلطف

٨– حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٣١٩ .

في مايوقع الكلام أحسن مواقعه ويجريه على أقوم مجاريه من أضداد هذه الأشياء "(١).

وفي ضوء مايقوله حازم- أيضا- ندرك سر استحسانه للصورة الالتفاتية في قول أبي عبادة البحتري :

شقائق يحملن الندى فكأنه
دموع التصابي في خدود الخرائد
كأن يد الفتح بن خاقان أقبلت
تليها بتلك البارقات الرواعد (٢)

وفي قول شاعر آخر غيره :

مازال يلثمني مراشفه
ويعلني الابريق والقدح
حتى استرد الليل خلعته
وبدا خلال سواده وضح
وبدا الصباح كأن غرته
وجه الخليفة حين يمتدح (٣)

ويشاكل هذه الصور المستجادة في الأبيات المتخيرة مثلها في قول الفرزدق على مذهب الاستطراد :

وركب كأن الريح تطلب عندهم
لها ترة من جذبها بالعصائب
سروا يخبطون الريح وهي تلفهم
الى شعب الأكوار ذات الحقائب
اذا أنسوا نارا يقولون: ليتها
وقد خصرت أيديهم ، نار غالب(٤).

ومثلها في قول حبيب في صفة الفرس :

فلو تراه مشيحا والحمى زيم
مابين رجليه من مثلى ووحدان
أيقنت ان لم تثبت أن حافره
من صخر تدمر أو من وجه عثمان(٥)

قد يذكرنا حازم بما يقوله عن التخلص و الاستطراد على الجملة بما انتهى اليه أسلافه وربما معاصروه ، حسبي أن أشير - مثلا - الى ماورد عنهما أو عن أحدهما - في الكتابات البلاغية والنقدية لابن المعتز في القرن الثالث الهجري(٦) ، ولابن طباطبا و الآمدي والعسكري في القرن الرابع الهجري(٧) ،ولابن رشيق في القرن الخامس الهجري(٨) ، ولابن الأثير والمظفر بن الفضل العلوي في القرنين السادس والسابع الهجريين(٨) ، بل ان الأمثلة التي يستجيدها حازم هي - في الأغلب - ذات الأمثلة التي تتردد في كتابات هؤلاء أو في كتابات بعضهم في

١- المصدر نفسه : ٣٢١
٢- المصدر نفسه : ٣٢٢
٣- المصدر نفسه : الصفحة نفسها
٤- المصد نفسه : الصفحة نفسها .

٥- حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٣٢٣
٦- راجع البديع : ٦٠
٧- راجع على التوالي: عيار الشعر، تحقيق وتعليق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام المكتبة التجارية ،القاهرة ١٩٥٦ : ١١٠ والموازنة بين أبي تمام والبحتري ، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر ١٩٦٥، ٢: ٢٩١ وما بعدها والصناعتين تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ،القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٧١/ ١٩٥٢م : ٤٥٢ وما بعدها .
٨- راجع العمدة : ١ : ٢٣٤ وما بعدها .
٩- راجع المثل السائر: ٣: ١٤٧ : ونضرة الاغريق في نصرة القريض ،تحقيق نهى عارف الحسن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٧٦: ١٠٧ . ١١٢ .

الاقل ، كل الفرق الذي يتفرد به حازم عنهم يتجلى في رده هذين المبحثين التخلص و الاستطراد – الى الالتفات ويتجلى – بعد ذلك – في ربطه بين وظيفتيهما ووظيفة الالتفات ضمن تصور أعم وأشمل لوظيفة الصورة ، وذلك ضمن نطاق من التماسك والتكامل ربما لانصادفه الا عنده ، وذلك هو الذي سنبينه .

– ٢ –

قلت ان الالتفات انتقال بالكلام من جهة الى جهة لغرض ما ، وقلت ان مايقال عن الالتفات – هنا – يمكن أن يقال عما هو في صورته كالتخلص والاستطراد وكذا غيرهما – فكلاهما انتقال بالكلام من نحو الى نحو لغرض ما . ولكن ما طبيعة هذا الغرض ؟ وما هي أمثاله وما هو تصور الناقدين ابن الاثير وحازم له ؟ وما صلة هذا التصور بالذي قبله ؟ اهو امتداد له ؟ ام هو تطوير له ؟ ان الاجابة عن هذه الاسئلة كلها تتطلب التأني عند الالتفات أو عند ماهو في صورته ، ولكن في وظيفته ، وذلك هو الذي ستفعله الدراسة .

عندما يقول ابن الأثير : اعلم ان عامة المنتمين الى هذا الفن اذا سئلوا عن الانتقال من الغيبة الى الخطاب ، وعن الخطاب الى الغيبة – وكل هذا نمط من أنماط الالتفات – قالوا كذلك كانت عادة العرب في أساليب كلامها . وهذا القول هو عكاز العميان كما يقال "(١).

وعندما يقول ابن الأثير:" وقال الزمخشري رحمه الله : ان الرجوع من الغيبة الى الخطاب انما يستعمل للتفنن في الكلام ، والانتقال من اسلوب الى اسلوب ، تطرية لنشاط السامع وايقاظا للاصغاء اليه "(٢).

وعندما نتأمل هذه الأقاويل فانها كما أراها – في اطار ماتقدمه تعكس ذلك التصور الذي كان شائعا قبل ابن الأثير في التعامل مع الالتفات وفي النظر الى وظيفته . صحيح أن ابن الأثير يشير الى الزمخشري ، وصحيح أن ما ينقله الأول عن الثاني هو الذي نصادفه قبله ونلمحه بعده ، فالالتفات – مهما كان ضربه – يصار اليه بغية ايقاظ السامع وشد انتباهه الى الكلام لمتابعته ، وصحيح أن هذه الغاية – أو المقصد – تتوافق مع التصور القديم الذي كان يقوم في كل حديث له عن الفن – والشعر فن – على الاهتمام بالمتلقي أكثر من اهتمامه بالمبدع كل ما أقوله صحيح ، ولكن الصحيح – أيضا – أن ابن الأثير يرى خلاف مايراه الزمخشري ومن يلف لفه .

ان الأمر ليس كما ذكره الزمخشري ذلك مايقوله ابن الأثير ، فالانتقال في الكلام اذا لم يكن الا تطرية لنشاط السامع ، وايقاظا للاصغاء اليه" فان ذلك دليل على أن السامع يمل من أسلوب واحد فينتقل الى غيره ، ليجد نشاطا للاستماع وهذا قدح في الكلام ، لا وصف له ، لأنه لو كان حسنا لما مل "(٣)

وثمة مايرد به ابن الأثير – أيضا – على الزمخشري . ان كلام هذا الأخير يمكن أن يكون مقبولا عندما يكون الكلام الذي يقع فيه الانتقال مطولا ، وكذلك فان

١– ابن الأثير: المثل السائر: ٢: ١٨٢–١٨٢

٢– المصدر نفسه :الجزء نفسه :١٨٢

٣– المصدر نفسه : الجزء نفسه :الصفحة نفسها .

كلام الزمخشري يمكن أن يحل من ابن الأثير محل القبول اذا كان مفهومه في الانتقال من اسلوب الى اسلوب يقوم على أنه انما يستعمل للمخالفة بين المنتقل عنه والمنتقل اليه ، لاقصدا لاستعمال الأحسن وبخلاف كل هذا يظل أي قول للزمخشري " فيه مافيه " (١).

محصلة مايقوله ابن الأثير أو ما يذهب اليه ، أنه يرفض أن تقتصر وظيفة الالتفات على نطاق" التطرية "و" الايقاظ" وهو رفض مايزال يؤكده في قوله : "والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب الى الغيبة أومن الغيبة الى الخطاب لايكون الا لفائدة اقتضته ، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من اسلوب الى اسلوب ، غير انها " لاتحد بحد ، ولا تضبط بضابط" (٢). وهذا قول يماثله قول ابن الاثير عند حديثه عن القسم الثاني من الالتفات – الرجوع عن الفعل المستقبل الى فعل الامر، وعن الفعل الماضي الى فعل الأمر – " وهذا القسم كالذي قبله في أنه ليس الانتقال فيه من صيغة الى صيغة طلبا للتوسع في أساليب الكلام فقط ، بل لأمر وراء ذلك " (٣).

واذا كان الامر على مايقوله ابن الأثير ، ففيم تقع وظيفة الالتفات ومالذي يطرحه الرجل على هذا الصعيد لقد توقف ابن الاثير – مثلا – عند الالتفاتات في السورة التي يفتتح بها تبارك وتعالى كتابه العزيز" وهذه السورة قد انتقل في أولها من الغيبة الى الخطاب ، لتعظيم شأن المخاطب ثم انتقل في آخرها من الخطاب الى الغيبة ، لتلك العلة بعينها، وهي تعظيم شأن المخاطب ، لان مخاطبة الرب تبارك وتعالى باسناد النعمة اليه تعظيم لخطابه وكذلك ترك مخاطبته باسناد الغضب اليه تعظيم لخطابه "(٤).

وتوقف ابن الاثير – مثلا – عند الالتفات في قوله تعالى " هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين " فانه سبحانه " انما صرف الكلام هاهنا من الخطاب الى الغيبة لفائدة ، وهي أنه ذكرلغيرهم حالهم ليعجبهم منها كالمخبر لهم ويستدعي منهم الانكار عليهم ، ولو قال : حتى اذا كنتم في الفلك جرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها ، وساق الخطاب معهم الى آخر الاية لذهبت تلك الفائدة التي انتجها خطاب الغيبة ، وليس ذلك بخاف عن نقده الكلام "(٥).

وما يلاحظ عن وظيفة الالتفات في هذه الامثلة وكلها تنطوي تحت نمطه الأول عند ابن الاثير يمكن ان يلحظ في كل الامثلة التي يسوقها الرجل للتدليل على وظيفة الالتفات في نمطه الثاني فهذا النمط – او القسم – انما يقصد اليه تعظيما لحال من اجري عليه الفعل المستقبل ، وتفخيما لامره ، وبالضد من ذلك فيمن اجري عليه فعل الامر(٦).

ان تقدير الكلام في قوله تعالى:

١– ابن الاثير: المثل السائر: ٢: ٩٨٣

٢– المصدر نفسه :الجزء نفسه : الصفحة نفسها

٣– المصدر نفسه – الجزء نفسه : ١٨٤

٤– المصدر نفسه : الجزء نفسه : ١٩٥–١٩٦

٥– ابن الاثير: المثل السائر: ٢: ١٩١

٦– المصدر نفسه : الجزء نفسه : ١٩٢ .

قل امر ربي بالقسط واقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ." امر ربي بالقسط وباقامة وجوهكم عند كل مسجد ، فعدل عن ذلك الى فعل الامر للعناية بتوكيده في نفوسهم ، فان الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده ، ثم اتبعها بالاخلاص الذي هو عمل القلب اذ عمل الجوارح لايصح الا باخلاص النية ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : الاعمال بالنيات (١).

وتتجاوب هذه الوظائف التي تتضمنها اقاويل ابن الاثير في حديثه عن الالتفات في نمطه الثالث ، وان كان الاوضح منها - عنده - مايمكن ان يعبر عنه باستحضار المعنى وتمثيله للسامع كأنه يشاهده . لقد توقف الرجل - مثلا - عند حديث الزبير بن العوام ، رضي الله عنه ، في غزوة بدر ، فانه قال: لقيت عبيدة بن سعيد بن العاص ، وهو على فرس ، وعليه لأمة كاملة لايرى منه الا عيناه ، وهو يقول - " انا ابو ذات الكؤوس ، وفي يدي عنزة فأطعن بها في عينيه ، فوقع ، وأطأ برجلي على خده ، حتى خرجت العنزة متعقفة ". فقوله " فأطعن بها في عينيه ، وأطأ برجلي " معدول به - والقول لابن الاثير عن لفظ الماضي الى المستقبل " ليمثل للسامع الصورة التي فعل فيها مافعل من الاقدام والجراءة على قتل ذلك الفارس المستلئم . الا ترى انه قال اولا: لقيت عبيدة " بلفظ الماضي ، ثم قال بعدذلك فاطعن بها في عينيه " ولو عطف كلامه على اوله لقال : فطعنت بها في عينيه "(٢)

ودون ان امضي في تلمس الشواهد والامثلة على مايقوله ابن الاثير عن غائية الالتفات - وهي تتكاثر عنده فان ملاك الامر ان الالتفات - بكل انماطه - يأتي لنوع خصوصية وتميز. وان هذه الخصوصية لاتتوقف عند حدود التوسع في الاساليب او التفنن في الكلام ولا تتوخى " الايقاظ " و " التطرية " حسب ، بل تتجاوز ذلك - دون ان تلغيه الى معنى - او غرض - ابعد وادق او كما يقول ابن الاثير:" ولمقصد آخر معنوى هو اعلى وابلغ "(٣).

ان خصوصية الالتفات التي تؤكدها اقاويل ابن الاثير، وتعززها امثلته وشواهده ، تتجلى - على صعوبة حصرها فيما يمكن ان اعبر عنه بـ " التعظيم " و" التوضيح " و" التوكيد" و" التعجيب" و" التمثيل " ، المهم ان هذه الخصوصية تطرد في كل الامثلة التي يسوقها ابن الاثير سواء اكانت من القران الكريم، ام من الشعر والنثر ، والاهم ان خصوصية الالتفات هذه ، وهي غايته ووظيفته ، هي ذات الوظيفة التي تقوم بها مباحث " الصورة البلاغية " في التصور القديم وأكثرها دورانا فيه التشبيه والاستعارة فيما يقال (٤).

ولما كان الالتفات - على ماقلته - مبحثا من مباحث الصورة ، فان من المنطقي ان ينطبق عليه - على مستوى الوظيفة - ماينطبق على غيره من مباحثها

١- المصدر نفسه : الجزء نفسه ١٩٣

٢- المصدر نفسه : الجزءنفسه :١٩٥-١٩٦

٣- ابن الاثير: المثل السائر:٢:١٨٥

٤- راجع قاسم المومني ، نقد الشعر في القرن الرابع الهجري ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٨٤ : ٢٣٣

بفارق تفرضه خصوصية مبحث من هاتيك المباحث . ولقد كان دين ابن الاثير لاسلافه في كل ما انجزه عن الالتفات في وظيفته كبيرا ، فـ" التعظيم و" التوضيح " و" التوكيد" و" التعجيب " و" التمثيل " – كل هذه الوظائف طالما اكد عليها بلاغيو العرب ونقادهم قبله (١). وكل هذه الوظائف لم يكن تأكيدهم عليها الا جزءا من تأكيد اعم واشمل ينسحب ليشمل ماتقوم به " الصورة البلاغية " على الجملة .

قد اقول ان التأكيد على هذه الوظائف – سواء في معرض الحديث عن الالتفات او في معرض الحديث عن غيره من مباحث الصورة ، يعني كما افهمه اهتمام البلاغيين والنقاد القدماء بالمتلقي أكثر من اهتمامهم بالمبدع ولقد قيل ان ذات المبدع ونشاطه الداخلي الخلاق امر مستبعد بالنسبة لتراثنا البلاغي والنقدي ، الذي ينظر الى المبدع من حيث علاقته التبعية التي تربطه باسلافه ، ومن حيث مطابقة نشاطه للمقتضيات الخارجية (٢). وقيل : " ان ذات المبدع وعالمه الداخلي ونشاطه الوجداني الخاص المتميز كان امرا يتجنب الجميع – في الاغلب الاعم – الخوض فيه اوالتعرض له " (٣).

وقد اقول ان لهذا التاكيد – في التصور القديم – مايبرره ويسوغه ، فالجوانب الوجدانية والانفعالية للمبدع يعتورها من الغموض مايجعل الحديث فيها امرا صعبا مالم يسند بتصورات مناسبة عن كيفية تشكيل المبدع لصوره ، ولقد المح بعض الدارسين الى هذه الحقيقة وانتهى الى ان الجميع" قد ركز على النص ذاته ، من حيث علاقته بالعالم الخارجي الذي يحاكيه ويستمد عناصره منه ، ومن حيث علاقته بالمتلقي او المستمع الذي يتأثر وينفعل به ، اكثر من تركيزهم على علاقة النص بالعوالم الداخلية لمبدعيه او مدى تعبير النص عن ملكات تخيلية فائقة "(٤).

ومهما كانت الاسباب التي تفسر اغفال الاسلاف للجوانب الانفعالية ، فان المهم ان وظائف الالتفات التي نتردد في كتابات ابن الاثير ، وتتردد في الكتابات البلاغية والنقدية قبله ، مظهر من مظاهر اهتمامهم بالمتلقي ، هذا امر ، وامر اخر فان هذه الوظائف تشي صراحة – لاضمنا – بأن الالتفات بكل اقسامه امر قابل للتعلم ، وفي ضوء هذا نفهم الحاح ابن الاثير على ان الامثلة التي يوردها في معرض حديثه عن الالتفات انما يسوقها ليقاس عليها (٥)، ونفهم – بعد ذلك – استخدامه اللافت – في ذات المعرض – لافعال " العلم" و"التأمل" و" النظر " ووجوبها (٦)، واهم من ذلك كله ان مراتب المبدعين تتفاوت في التفاتاتهم وتتفاوت بطبيعة الحال منازل المتلقين منقدة الكلام في تذوقها وفي ادراك خوافيها (٧).

١– راجع جابر عصفور، الصورة الفنية التراث النقدي البلاغي: ٣٦٩ وما بعدها .

٢– راجع جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي :٩٧

٣– المرجع نفسه : ٥٨

٤– المرجع نفسه : الصفحة نفسها

٥– راجع ابن الاثير: المثل السائر: ٢: ١٨٣ : ١٨٨: ١٩٧

٦– راجع المصدر نفسه: الجزء نفسه: ١٨١: ١٨٤ : ١٨٦: ١٨٧: ١٩٣: ١٩٤

٧– راجع المصدر نفسه: الجزء نفسه: ١٨٤: ١٨٦: ١٨٧: ١٩١: ١٩٤

ولست اقصد بما اقوله عن اهتمام ابن الاثير بالمتلقي ، وهو يتحدث عن مهام الالتفات ووظائفه كسائر البلاغيين والنقاد قبله ، ان ادفع عنه التفاته الى الجوانب الانفعالية ، وهو التفات يتجلى ربما في اوضح صورة له في اطار حديثه عن الطبع (١) والطبع جانب ذاتي فيما يقال (٢) . و الاهتمام به – الطبع – يرجع الى ماقبل ابن الاثير (٣) ، ولكن الذي اقصده ان اهتمام الرجل بالطبع يظل هينا ان قورن بتأكيده على الجوانب الواعية المبذولة في العمل الفني والالتفات معطى من معطياته ، ووظائفه ثمرة من ثماره وتجل من تجلياته ، وذلك هو الذي يستمر حازم القرطاجني بعد ابن الاثير في التأكيد عليه .

ينظر حازم الى الالتفات او الى ماهو في صورته على انه انتقال بالكلام من حيز الى حيز ، وسواء اكان هذا الانتقال بتدرج ام بغير تدرج فانه لايكون الا لمقصد او غاية ، واكد جانب في هذه الغاية مايعبر عنه حازم باستثارة الهزة لدى السامع او المتلقي واستجداد نشاطه ، وهو تعبير يقابله عند صنوه ابن الاثير " التطرية " و" الايقاظ" صحيح ان هذا الاخير قد اهتم بما هو ابلغ من " التطرية " و ادق من " الايقاظ" على حد قوله ، وصحيح أن " التوضيح" و" التأكيد" و" التعجيب" و" التمثيل" ليست الا امثلة تشكل بائتلافها الخصوصية والتمييز التي ظل ابن الاثير مشغولا ببيانها في الامثلة الدوال عليها كل ذلك صحيح ، ولكن الصحيح ايضا ان ما يعبر عنه حازم ، ولقد ذكرته ، يستوعب – بالضرورة – تلك الخصوصية . ان التعجيب – مثلا – بالغ القيمة في ايقاع " الهزة " وفي " استجداد النشاط" ، او كما يقول حازم :" والتعجيب يكون باستبداع ما يثيره الشاعر من لطائف الكلام التي يقل التهدي الى مثلها . فورودها مستندر مستطرف لذلك :كالتهدي الى مايقل التهدي اليه من سبب للشيء تخفى سببيته ، او غاية له ، او شاهد عليه او شبيه له او معاند وكالجمع بين مفترقين من جهة لطيفة قد انتسب بها احدهما الى الاخر ، وغير ذلك من الوجوه التي من شأن النفس ان تستغربها" (٤).

تتجلى اهمية الالتفات – اذا – اوما هو في صورته ، فيما يحدثه من اثر يتمثل في دفع السأم عن المتلقي بالهزة التي يوقعها فيتجدد بذلك نشاطه لمتابعة الكلام . المهم ان هذه القيمة تستوعب – بداهة – الخصوصية التي كان ابن الاثير قد اشار اليها . والاهم ان هناك مايسند به حازم تصوره ، وثمة ما يسترفده في تعزيز هذا التصور وقوامه معارفه

١– يقول ابن الاثير عن اهمية الطبع في صنعة الكلام : "متى لم يكن ثم طبع لم تفد تلك الالات شيئا البتة ، فمثل الطبع كمثل النار الكامنة في الزناد ، ومثل الالات كمثل الحراق والحديدة التي يقدح بها ، الا ترى انه اذا لم يكن في الزناد نار لايفيد ذلك الحراق ولا تلك الحديدة شيئا" ، راجع ابن الاثير : المثل السائر : ١:٥٥

٢– راجع جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي: ١٠٤

٣– راجع تفاصيل ذلك عند جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ١٠٣:١٠٤: وراجع مصادره .

٤– حازم القرطاجني : منهاج البلغاء ، وسراج الادباء : ٩٠

في علم النفس والمنطق والحكمة (١). وهي معارف قد نلمحها في قوله عن اهمية الانتقال بالكلام من جهة لجهة:ان الحذاق من الشعراء- المهتدين بطباعهم المسددة الى ضروب الهيئات التي يحسن بها موقع الكلام من النفس من جهة لفظ او معنى او نظم او اسلوب - لما وجدوا النفوس تسأم التمادي على حال واحدة وتؤثر الانتقال من حال الى حال ووجدوها تستريح الى استئناف الامر بعد الامر واستجداد الشيء بعد الشيء ، ووجدوها تنفر من الشيء الذي لم يتناه في الكثرة اذا اخذ مأخذا واحدا ساذجا ولم يتحيل فيما يستجد نشاط النفس لقبوله بتنويعه والافتنان في انحاء الاعتماد به ،وتسكن الى الشيء وان كان متناهيا في الكثرة اذا اخذ من شتى مآخذه التي من شأنها ان يخرج الكلام بها في معاريض مختلفة واحتيل في مايستجد نشاط النفس لقبوله من تنويعه والافتتان في انحاء الاعتماد به اعتمدوا في القصائد ان يقسموا الكلام فيها الى فصول ينحى بكل فصل فيها منحى من المقاصد ليكون للنفس في قسمة الكلام الى تلك الفصول والميل بالأقاويل فيها الى جهات شتى من المقاصد وانحاء شتى من المآخذ استراحة واستجداد نشاط بانتقالها من بعض الفصول الى بعض وترامي الكلام بها الى انحاء مختلفة من المقاصد - فالراحة حاصلة بها لافتنان الكلام في شتى مذاهبه المعنوية وضروب مبانيه النظمية - واعتنوا باستفتاحات الفصول وجهدوا في ان يهيؤوها بهيئات تحسن بها مواقعها من النفوس وتوقظ نشاطها لتلقي ما يتبعها ويتصل بها وصدروها بالاقاويل الدالة على الهيئات التي من شأن النفوس ان تتهيأ بها عند الانفعالات والتأثرات لامور سارة او فاجعة او شاجية او معجبة بحسب ما يليق بغرض الكلام من ذلك ، وقصدوا ان تكون تلك الاقاويل مبادئ كلام من جهة مانحي بها من انحاء الوضع اومحكوما لها بحكم المبادئ وان وصلها بما قبلها واصل لكونها مستقلة بانفسها من جهة الوضع الذي يخصها ، فيكون استئناف الكلام على ذلك النحو وصوغه على تلك الهيئات مجددا لنشاط النفس ومحسنا لموقع الكلام منها" (٢).

لقد آثرت ان انقل نص حازم - على طوله وعلى تنوع مافيه - لانه يكاد يكون ابلغ النصوص في الدلالة على فعل الانتقال في ذات المتلقي ، ولانه يكاد يكون اكثرها في الابانة عن ان للانتقال وظيفتين : جمالية تتجلى في تحسين موقع الكلام من النفوس ونفسية تتجلى في استجداد نشاطها لتلقي مايرد عليها. ولأن النص يقرن الجودة في الشعر بكل الصراحة بالجودة في الانتقال بل يجعل هذه الاخيرة سيمى يتميز بها الحذاق من الشعراء وعلامة من علامات الشاعرية او كما يقول حازم:" ومن الشعراء من يحسن القول في جهة واحدة ولا يحسن ان يردف قوله في جهة بقوله في جهة وان ينتقل من احداهما الى الاخرى انتقالا لطيفا ، ومنهم من يحسن ارداف الجهة بالجهة المناسبة لها ولا يحسن ارداقها بما لايناسبها فلا تتأتى النقلة لذلك من احداهما الى الاخرى إلا بمآخذ في الانتقالات لطيفة ومنازع في

١- راجع اهمية هذه المعارف لمن يتصدى لنقد الشعر عند حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الادباء: ٢٣١

٢- المصدر نفسه : ١٩٦

الالتفاتات بديعة ، ومنهم من يحسن ارداف الجهات بالجهات في جميع ذلك .
وطبقات الشعراء في الاحسان في كل ذلك تتفاوت بحسب ماتكون عليه أفكارهم من التهدي الى ضروب الانتقالات و انحاء الالتفاتات (١).

ومع ان الانتقال او النقلة ، في نص حازم ، مفهوم رحب يضم الالتفات ويضم ماهو في صورته ويضم - فوق ذلك مالا يقع تحت الالتفات وما لايقع في مطاوي صورته ، فان الذي لاشك فيه ان حقيقة الالتفات تتجمع في وحدة والذي لاشك فيه - ايضا - ان الانتقال يكتسب اهميته بسبب سموغايته وجلال دوره ، ويرد الرجل هذا الدور الى اساس نفسي مكين ، يماثل ذلك الاساس الذي يلمع اليه نص ، يقول حازم في التعبير عن هذا الاساس : " لما كان جميع مايدركه الانسان لايخلو من ان يكون شيئا بسيطا لاتنوع فيه اصلا او يكون له تنوع من جهة مايكون من الاشياء المركبة ، وكانت شيمة النفس التي جبلت عليها حب النقلة من الاشياء التي لها بها استمتاع الى بعض ، كانت جديرة ان تسأم التمادي على الشيء البسيط الذي لاتنوع فيه بنقلها من شيء الى شيء مالاتسأم الشيء الذي له تنوع يمكنها معه المراوحة بين تأمل الشيء وتأمل غيره مما يكون تنوع ذلك الشيء اليه ، وان كانت ايضا تحب النقلة من الشيء المتنوع الى غيره من المتنوعات لكنها تحتمل من التمادي عليه مالاتحتمل من التمادي على مالاتنوع له اصلا (٢).

١- حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الادباء : ٢١٩
٢- المصدر نفسه : ٢٤٥ .

وتتشافع النصوص - عند حازم - في التأكيد على اهمية الانتقال وفي الدلالة على تأثيره ، فالنفوس " شيمتها الضجر مما يتردد والولع بما يتجدد " (٣) والنفوس انما يحسن الكلام منها " بالمراوحة بين بعض فنونه وبعض الافتنان في مذاهبه وطرقه ، فيزداد حب النفس لما يرد عليها من ذلك اذا كانت زيارته غبا (٤) والنفوس لاتميل الى الاطراد لانه يؤدي الى تكرار " يستثقل ويزول به طيب الكلام (٥) ، والنفوس " تحب الافتنان في مذاهب الكلام وترتاح للنقلة من بعض ذلك الى بعض ليتجدد نشاطها بتجدد الكلام عليها (٦) .

كل هذه الاقاويل - او النصوص - تعنى كما افهمها - الحاح حازم على قيمة الانتقال ، وكل هذه الاقاويل ترد قيمة الانتقال الى الفعل الذي يولده ، وكل هذه الاقاويل تبرر - من ثمة - هذا التأثير تبريرا نفسيا فحواه ان النفوس تنفر من اطراد الكلام على اسلوب واحد او وتيرة واحدة ، فيلعب الانتقال والامر كذلك - دوره في هز النفوس ودفعها الى تلقي الكلام وتحسين موقعه منها . ولكن علينا ان نلاحظ ان ليس كل انتقال فيما يراه حازم - بمحمود . ان الانتقال الذي يستحسنه الرجل لهو الانتقال الذي يقوم على علاقة مابين المنتقل منه والمنتقل اليه ، وبدون هذه العلاقة يفقد الانتقال جدواه وبغير هذه العلاقة تنعدم من الانتقال وظيفته .

٣- المصدر نفسه : ٦١
٤- حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الادباء : ٣٠٢
٥- المصدر نفسه : ٣٤٧
٦- المصدر نفسه : ٣٦١

ولا اريد ان اتحدث في طبيعة هذه العلاقة ، وهي ترجع - عند حازم - اما الى تناسب او تشابه او تماثل ، وقد ترجع الى امور خارجة عن هذه ، حسبي ان اقول ان حازما يلح بنحو لافت على ضرورة التناسب في كل حديث له عن هذه العلاقة ، وان التناسب - عنده - قرين اللذة ، مما يعطى للانتقال بشتى صوره والصورة الالتفاتية احداها - قيمة . قد يقول حازم في تأكيده على ضرورة التناسب " فان للنفوس في تقارن المتماثلات وتشافعها والمتشابهات والمتضادات وما جرى مجراها تحريكا وابلاغا بالانفعال الى مقتضى الكلام لان تناصر الحسن في المستحسنين المتماثلين والمتشابهين امكن من النفس موقعا من سنوح ذلك لها في شيء واحد . وكذلك حال القبح وماكان املك للنفس وامكن منها ، فهو اشد تحريكا لها . وكذلك ايضا مثول الحسن ازاء القبيح او القبيح ازاء الحسن مما يزيد غبطة بالواحد وتخليا عن الاخر لتبين حال الضد بالمثول ازاءضده (١) وقد يقول حازم في تأكيده التناسب " اذ المذهب المستحسن في الكلام ان يفتن في ضروب الابداعات الموقعة فيه ، وان يتوخى في جميع ذلك تناسب الانتقالات وحسن الاقترانات" (٢). وقد يتجلى الحاح حازم على التناسب في قوله :" ويجب الا يسلك بالتخييل السذاجة في الكلام ، ولكن يتقاذف بالكلام في ذلك الى جهات من الوضع الذي تتشافع فيه التركيبات المستحسنة والترتيبات والاقترانات والنسب الواقعة بين المعاني فان ذلك مما يشد أزر المحاكاة ويعضدها . ولهذا نجد المحاكاة ابدا يتضح حسنها في الاوصاف الحسنة التناسق . المتشاكلة الاقتران " (٣) وقد يقول حازم في التناسب :" وكلما وردت انواع الشيء وضروبه مترتبة على نظام متشاكل وتأليف متناسب كان ذلك ادعى لتعجيب النفس وايلاعها بالاستماع من الشيء ، ووقع منها الموقع الذي ترتاح له "(٤)

ان النصوص التي يؤكد فيها حازم على اهمية التناسب كثيرة ، ولعل في استحضار قليلها ما يغني في الدلالة عن المضي في الاستكثار منها . مما لك

١- المصدر نفسه : ٤٤

٢- المصدر نفسه : ٦١

٣- حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الادباء :٩١. اما التخييل الذي يرد في نص حازم فيقول في جملة مايقوله عنه " والتخييل ان تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المخيل اومعانيه او اسلوبه او نظامه ، وتقوم في خياله صورة او صور ينفعل بتخيلها وتصورها . او تصور شيء آخر بها انفعالا من غير روية الى جهة من الانبساط او الانقباض " اما المحاكاة فان حازما يقول في جملة مايقوله عنها "المحاكاة اما ان تكون محاكاة وجود اومحاكاة فرض . وكلتاهما لاتخلو من ان تكون محاكاة مطلقة ، او محاكاة شرط اومحاكاة اضافة ، او محاكاة تقدير وفرض . ومحاكاة الموجود بالموجود اما ان تكون محاكاة كلي بكلي ، او جزئي بجزئي ، او كلي بجزئي اوجزئي بكلي .. ولا يخلو ان يحاكى الشيء بما هو من نوعه الاقرب او جنسه الاقرب او الابعد او بغير جنسه " راجع المصدر نفسه /: ٨٩:٩٢:٩٣

٤- المصدر نفسه : ٢٤٥ .

الامر في القدر الذي اجتزأته منها ان التناسب امر لا مندوحة عنه في الانتقال بالكلام من حيز الى حيز ، والا فقد الانتقال فاعليته وحيويته . ان التناسب مصطلح متنوع الدلالة عند حازم [1] . المهم ان التناسب بدلالاته كلها مبدأ اساسي في كل انواع الفن واشكاله فيما يقال [2] وان تقدير التناسب والالتفات الى اهميته في الفن امر يرجع الى ماقبل حازم [3] وان لذة التناسب ترجع الى ادراك المتلائم والاثر الناجم عن وقع المتجانس في النفس [4] . ولكن الاهم من ذلك كله ان حازما يؤكد بنحو متميز الاساس في كيفية تشاكل المعاني ، ويجعل هذه الكيفية سيمى تميز الشاعر وتجعله اكثر اقتدارا على ملاحظة علقة المعاني بعضها ببعض ، وشدة انتسابها بعضها الى بعض .

واذا كنت قد تحدثت حتى الان – في الاغلب الاعم – عن وظيفة الانتقال بصورته الكلية ، فان مما يبرر ذلك – عندي – ان ما يقال عن الانتقال على الجملة ينطبق – بالطبع – على الالتفات باعتباره تجليا من تجلياته ومظهرا من مظاهره ويبرر ذلك عندي – ايضا – ان مايلح عليه حازم في الانتقال برمته هو الذي يؤكده في حديثه عن الالتفات او عما هو في صورته . فالالتفات اوماهو في صورته يتوخى بالانتقال الذي يحدثه دفع السآمة عن المتلقي [5] ، ويسهم الالتفات بتحول الكلام الذي يوقعه في تحسين موقع الكلام وتمكينه من النفس [6] . اما مطلب حازم في الالتفات وفي صورته فلا يفارق هو الاخر مطلبه في الانتقال ، وذلك امر منطقي مادام الالتفات شعبة من شعب الانتقال ونحوا من انحائه . ان الذي يتطلبه الرجل في الالتفات او فيما هو في صورته التناسب بين اطراف الصورة الالتفاتية [7] ، وهو تشاكل يقتضي – حتما – وجود علاقة ما بين اطراف هذه الصورة ، ويعضد وهذا هو الاهم – الصورة في ايقاع الاثر الذي ترومه .

لقد توقف حازم – مثلا – عند "التفريغ وهو " ان يصف الشاعر شيئا يوصف ما ، ثم يلتفت الى شيء آخر يوصف بصفة مماثلة او مشابهة ، او مخالفة لما وصف به الاول ، فيستدرج من احدهما الى الاخر ويستطرد به اليه على جهة تشبيه او مفاضلة او التفات وغير ذلك مما يناسب به بين بعض المعاني وبعض فيكون ذكر الثاني كالفرع عن ذكر الاول [8] . – وضرب امثلة عليه قول الكميت :

احلامكم لسقام الجهل شافية
كما دمائكم يشفى بها الكلب

وقول ابن المعتز :

وكأن حمرة لونها من خده
وكأن طيب نسيمها من نشره

١– راجع هذه الدلالات عند حازم القرطاجني منهاج البلغاء وسراج الادباء : ١٤–١٥ .

٢– راجع جابر عصفور: مفهوم الشعر : ٤٢٥ وقارن بنص ٤٢٢

٣– راجع المرجع نفسه : ٤٢٩ وراجع مصادره

٤– راجع المرجع نفسه : ٤٢٢

٥– راجع حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الادباء: ٣٤٨ – ٢٩٣

٦– راجع المصدر نفسه : ٣١٤–٣١٨–٣١٩–٣٢٠

٧– راجع المصدر نفسه : ٣١٩–٣٢١

٨– المصدر نفسه : ٥٩ .

حتى اذا صب المزاج تبسمت
عن ثغرها فحسبته من ثغره
مازال ينجز لي مواعيد عينه
فمه ، واحسب ريقه من خمره

وقال الصنوبري :

ما اخطأت نوناته من صدغه
شبها ، ولا ألفاته من قده
فكأنما انفاسه من شعره
وكأنما قرطاسه من جلده (١)

وغير خاف فيما يقوله حازم عن " التفريغ" وفيما يورده من امثلة عليه ، ان قبوله له في الشعر واختياره لنماذجه ، يرجع الى مافيه من مراوحة والى مافيه – وهذا هو الاصل – من تشاكل بين المعاني تخفى سببيته الا على الحذاق من الشعراء الذين يتهدون اليه بقوتهم على الالتفات وبقوتهم على الصاق الكلام بعضه ببعض ، وبقوتهم على ملاحظة الوجوه التي يقع بها التشاكل بين المعاني (٢) ، او كما يقول حازم : " وينبغي ان تكون النقلة من احد المعنيين الى الآخر فيما قصد فيه التفريغ متناسبة ، وان يكون المعنى الثاني مما يحسن اقترانه بالأول ويفيد الكلام حسن موقع من النفس . ومما وقع من التفريغ غير متناسب الوضع ولا متشاكل الاقتران لم يحسن" (٣) .

واذا كان الامر خلاف مايقوله حازم عن " التفريغ " وكل مايتطلبه فيه ، بل اغلبه ، يتردد – ضمنا او صراحة – في حديثه عن الالتفات بكل اشكاله ، وعما هو في صورته كالتخلص والاستطراد (٤) ، عندئذ بالضبط فان حازما يرى في الكلام الذي هذه صفته مشتتا لاتتأثر النفس لمعتضاه او كما يقول حازم ، ان الكلام الذي لاتوصل فيه عبارة بعبارة ولا غرض بغرض مناسب له ، بل يهجم على الفصل هجوما من غير اشعار به مما قبله ولا مناسبة بين احدهما والاخر ، فان النظم الذي بهذه الصفة مشتت من كل وجه (٥) .

قد اقول – بعد كل ماتقدم – ان التناسب الذي يلح عليه حازم بين اطراف الصورة الالتفاتية لم يكن الا جزءا من تناسب اعم ظل يتطلبه الرجل في الاقاويل الشعرية او لاقل من التصاوير الشعرية مادام محصول الاقاويل الشعرية " تصوير الاشياء الحاصلة في الوجود وتمثيلها في الاذهان على ماهي عليه خارج الاذهان من حسن او قبح حقيقة ، او على غير ماهي عليه تمويها وايهاما" (٦) وقد اقول ان انفعال المتلقي بالصورة الالتفاتية وتفاعله معها لم يكن الا جزءا من انفعال اشمل بالصورة الشعرية ، بل البلاغية ، وهو انفعال يرده حازم الى ما تثيره الاخيرة من تعجيب واستغراب " فان الاستغراب والتعجيب حركة للنفس اذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثرها" (٧) . وقد اقول ان تصور حازم لوظيفة الالتفات ووظيفة ماهو في صورته لايفارق تصوره الاعم

١– حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الادباء : ٥٩ – ٦٠

٢– راجع هذه القوى عند حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الادباء: ٢٠٠

٣– المصدر نفسه : ٦١

٤– راجع المصدر نفسه : ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١

٥– المصدر نفسه : ٢٩١

٦– حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الادباء: ١٢٠ وراجع تأكيد حازم على التناسب في المصدر نفسه: ١١٢ ، ١١٥ ، ١٢٨

٧– المصدر نفسه : ٧١ وقارن بصفحة ٩٠ – ٩٦

لوظيفة الصورة الشعرية – أوالبلاغية فهز المتلقي وتنشيطه بدفع الضجر عنه وتحسين مواقع الكلام منه ، كل هذه الغايات هي التي تترامى اليها – وقد تترامى الى غيرها – الصورة الشعرية وقد اقول ان هذا التصور يستند الى طبيعة فهم حازم للشعر – والشعر كلام بليغ – وهو فهم يقوم على النظر الى الشعر باعتباره تخييلا عقليا، ومن المنطق في ظل هذا الفهم ان يتم الالحاح على التناسب او التشاكل لانه مظهر من مظاهر حضور العقل في العمل الشعري ، ومن البدهي في ظل هذا الفهم – ايضا – الا يلتفت كثيرا الى المبدع [1] – الشاعر – وان يلتفت كثيرا الى المتلقي . وقد اقول ان هذا التصور يتناغم وذلك التصور النقدي الذي كان شائعا عند العرب – قبل حازم – ذلك التصور الذي ظل يتعامل مع الشعر على اساس انه صنعة عقلية او تخييل عقلي ، ويطالب الشاعر فيه بان يحضر لبه عندكل مخاطبة ووصف[2].

ان حازما في كل ما اقوله عنه او في جله – كمعاصره ابن الاثير ولعلي لست بحاجة لاعيد هنا ماكنت قد قلته عن ابن الاثير من قبل ، حسبي ان اقول ان التشابه بين الناقدين من جهة وبينهما وبين أسلافهما من جهة ثانية ، يلغي مايمكن ان نفترضه من فوارق بين ناقد اديب كابن الاثير وبين ناقد تشكل ادبيته جانبا من جوانب ثقافته كحازم القرطاجني ، وان الاختلاف بينهما – ان وجد – يظل محصورا في نطاق المسارب والمداخل دون ان ينسحب ليشمل المواقف العامة والشاملة من العمل الشعري ، والالتفات وما هو في صورته معطى من معطياته .

لقد حاول الناقدان ان يقدما باخلاص تصورا متماسكا للصورة الالتفاتية تتعاضد فيه الماهية مع المهمة ويتداخل فيه المفهوم مع الوظيفة ، ولكن باتساق وانتظام ، وبغض النظر عن اتفاق الناقد المعاصر – او اختلافه – معهما في تفاصيل هذا التصور او في كلياته فانه لايملك الا ان يقدر لهما جدية المحاولة واصالتها على السواء.

١– يتجلى هذا الالتفات – على ماقلته في حديث حازم عن الطبع ، وهو حديث يذكرنا بمثله عند ابن الاثير، يقول حازم : "النظم صناعة آلتها الطبع .والطبع هو استكمال للنفس في فهم اسرار الكلام والبصيرة بالمذاهب والاغراض التي من شأن الكلام والشعر ان ينحى به نحوها منهاج البلغاء ، وسراج الادباء ١٩٩ .

٢– راجع ابن طباطبا :عيار الشعر: ١٢١ :١٢٢.

مصادر الدراسة ومراجعها

- احمد مطلوب – معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٨٣ م
- ادريس الناقوري – المصطلح النقدي في " نقد الشعر" دار النشر المعربية الدار البيضاء ، ١٩٨٢م
- اسامة بن منقذ – البديع في نقد الشعر ، تحقيق عبدآ ٠ علي مهنا دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧ م
- جابر عصفور – الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٧٣م
- مفهوم الشعر – دار الثقافة للطباعة والنشر – القاهرة – ١٩٧٨م
- جليل راشد فالح – فن الالتفات في مباحث البلاغيين ، بحث منشور في مجلة اداب المستنصرية – العددالتاسع ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م
- حازم القرطاجني – منهاج البلغاء وسراج الادباء – تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ، تونس – ١٩٦٦م
- الحسن بن بشر الامدي : الموازنة بين ابي تمام والبحتري ، تحقيقالسيد احمد صقر ، دار المعارف – القاهرة ١٩٦٥م
- الحسن بن رشيق القيرواني – العمدة تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد المكتبة التجارية القاهرة ، الطبعة الثالثة – ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م
- الحسن بن عبد الله ابو هلال العسكري الصناعتين ، تحقيق علي محمدالبجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم– مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، الطبعة الاولى ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م
- شكري عياد : كتاب ارسطو طاليس في الشعر – دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م
- ضياء الدين بن الاثير – المثل السائر تحقيق احمد الحوفي وبدوي طبانة منشورات دار الرفاعي ، الرياض الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م
- عبد الكريم الاشتر – اخر النقادالعرب ضياء الدين بن الاثير ، بحث منشور في مجلة مجمع اللغة العربية– دمشق مجلد ٤٢، ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧م
- عبدالله بن المعتز– البديع ، تحقيق اغناطيوس كراتشقوفسكي ، مكتبة المثنى ، بغدادالطبعة الثانية ١٣٩٩هـ ١٩٧٧م
- قاسم المومني : نقد الشعر في القرن الرابع الهجري ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٨٤م
- قدامة بن جعفر = نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد ، ١٩٦٣م
- محمد بن احمد ابن طباطبا– عيار الشعر – تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام ، المكتبةالتجارية ، القاهرة ١٩٥٦م
- محمد بن الطيب الباقلاني– اعجاز القران ، تحقيق السيد احمد صقر ، دار المعارف القاهرة الطبعة الثالثة ، د٠ت
- المظفر بن الفضل العلوي – نضرة الاغريق في نصرة القريض ، تحقيق نهى عارف الحسن ، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٧٦ ٠